



215-أمة اقرأ

خطب الجمعة

2026-01-30

سورية - دمشق

مسجد عبد الغني النابلسي

يا ربنا لك الحمد، ملء السماوات والأرض، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، غنى كل فقير، وعز كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومفرج كل ملهوف، فكيف نفتقر في غناك، وكيف نضل في هُداك، وكيف نذل في عزك، وكيف نُضام في سلطانك، وكيف نخشى غيرك، والأمر كله إليك، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرسلته رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، ليخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات، فجزاه الله عنا خير ما جزي نبياً عن أمته.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد، وعلى أزواج سيدنا محمد، وعلى ذرئته سيدنا محمد، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد فيا أيها الإخوة الأحباب: قريباً من مكة المكرمة، وفي غار حراء تحديداً، وقبل ما يزيد على ألف وخمسمئة عام، تردد صوت جبريل عليه السلام، وهو ينزل بالوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)
(سورة العلق)

لُعِين الوحي بذلك، نهاية عصر الظلمات وبداية عهد النور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (1)
(سورة إبراهيم)

الظلمات كثيرة لكن طريق الحق واحد لا يتعدّد:

(مِنَ الظُّلُمَاتِ) بالجمع (إِلَى النُّورِ) المُفْرَد، فما أكثر الظُّلُمَاتِ، وأمّا طريق الحقّ فواحد لا يتعدّد (مِنَ الظُّلُمَاتِ) من ظلمة الجهل، وظلمة الشُّرك، وظلمة المناهج الأرضية، وظلمة الطاغوت الذي يُعَيِّد من دون الله تعالى، إلى نورٍ واحدٍ وهو نور الهداية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153)

(سورة الأنعام)

صراط الله المستقيم واحد، لكن سبل الغواية مُتعدّدة، فما أحرى بالإنسان أن يسلك الصراط المستقيم ونور الهداية القويم.

القراءة البعيدة عن الإيمان قراءةٌ نتيجتها الدمار والهلاك:

أيّها الإخوة الكرام: كانت كلمة (اقْرَأْ) والتي سُمِّيَتْ أمتنا من بعدها في خير عصورها "أمة اقرأ"، كانت كلمة (اقْرَأْ) حرباً على الجهل، وكانت كلمتنا (بِاسْمِ رَبِّكَ) حرباً على كل قراءة لا تبدأ باسم الله، ولا تنتهي بالإنسان إلى الإيمان بالله الخالق العظيم، فالقراءة في الكون، والقراءة في الكتب، والقراءة في كل شيء، البعيدة عن الإيمان مُنطلقاً ونتيجةً، لا تؤدّي إلى خير، كم قرأوا في الكون؟ وكم تعلّموا؟ وكم قرأوا في الكتب ولم يُفَضِّ إيمانهم إلى خير، لأنّ القراءة البعيدة عن الإيمان، التي لا تنطلق من الوحي، ولا تكون ثمرتها (بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) هي قراءةٌ نتيجتها الدمار، والهلاك، والإفساد، والطغيان كما نرى، لذلك جاء بعدها في سورة العلق:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (6)

(سورة العلق)

متى يطغى؟ عندما يقرأ لكن لا يقرأ باسم ربّه، عندما يقرأ لكن لا يقرأ قراءةً إيمانيةً تقوده إلى معرفة الله، وإلى شكر الله، فيصنع الأسلحة الفتاكّة، والقنابل العنقودية والجرثومية، ويبعث في الأرض فساداً، عندما قرأ في الكون بغير اسم الله تعالى.

قراءة الإيمان تؤدّي إلى إعمار الأرض بالخير ونشر الحقّ والعدل:

أيّها الإخوة الكرام: أمّا قراءة العدل، وقراءة الإيمان، فإنها تؤدّي إلى إعمار الأرض بالخير، ونشر الحقّ والعدل، ويكون الجهاد في سبيل الله عندها، وسيلةً لتحقيق ذلك، وردعاً لكل من يُريد الوقوف في وجه نشر الحقّ والخير، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَائِلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَهُ وَتَكُونَ الدِّينَ كُلَّهُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39)

(سورة الأنفال)

فهدف القتال في سبيل الله ليس عدواناً على أحد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)

(سورة البقرة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
بَسَّالُوتَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرَ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ
وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُوكُمْ حَتَّى يَرْدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قَبِضْتُ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217)

(سورة البقرة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَقْتُلُوهُمْ حَتَّى تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۚ
فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191)

(سورة البقرة)

الجهاد والقتال في سبيل الله منع للفتنة:

عندما يقاوم المؤمن في سبيل الله، يقاوم ليمنع الفتنة في الأرض، وأي فتنة أعظم، وأي فتنة أكبر من أن يُفتن الناس عن دينهم، أن يكون الإعلام موجهاً لفساد أبنائي وبناتي، أي فتنة أعظم؟ أي فتنة أعظم من أن تُقص شعوب أمة لا ذنب لهم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ يَغِيرُ حَقٌّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ
يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۚ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40)

(سورة الحج)

أي فتنة أعظم من أن تُثار الشبهات حول دين الله، وتتلقيها وسائل الإعلام، وتنشرها على أنها رأي يُشار إليه بالبنان، أي فتنة أعظم من أن يخرج النافهون والنافهات، فيتصدرون الوسائل الإعلامية والمجالس، ويتحدثون ويدلون بأرائهم في قضايا شرعية، في قضايا قطعية من دين الله تعالى، لا تقبل الجدل ولا تقبل الآراء، أي فتنة أعظم مما نراه اليوم (وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ) لذلك شرع القتال في سبيل الله، لئلا تكون فتنة في الأرض، كما تُشاهد في أيامنا هذه، وقد انتشرت الفتن في الأرض.

جاء القتال ليحفظ للناس دينهم وليقف في وجه من يُريد أن يُعبد الناس للطواغيت:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ) جاء القتال ليحفظ للناس دينهم، وليقف في وجه كل من يُريد أن يُعبد الناس للناس وللطواغيت، وأن يُعبد الناس لشهواتهم، فأراد الله تعالى من الجهاد في سبيله، أن يكون الدين لله، أن يدين الناس لله، أن يُسمع لهم بإقامة شعائهم، أن يُسمع لهم بأن يتوجهوا بالعبادة للخالق الذي خلقهم، هذا هو الجهاد في سبيل الله، هو إناحة المجال للناس، أن يعبدوا الله تعالى، أمّا من أراد غير ذلك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۚ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)

(سورة البقرة)

لكن لا يحقُّ لأحدٍ أن يُعبدَ الناسَ له، لا يحقُّ لطاغوتٍ أن يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (24)

(سورة النازعات)

كما قال فرعون، ولو لم يقلها بلسانه لكنه يقولها بأفعاله، أيُّ قوةٍ تجرؤ علينا كعادٍ لنا قالوا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (15)

(سورة فصلت)

نفعل ما نشاء، ندمر، نقصف الآمين، المستشفيات، الأبرياء، المدارس (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) فكان القتال في سبيل الله، لئلا يُصبح في الأرض قُطْبٌ واحدٌ يتحكّم في الأرض، وينهب ثرواتها، ويعيثُ فيها فساداً، هذه القراءة للكون أيُّها الكرام، عندما تكون قراءةً إيمانية، يكون القتال والجهاد وإعداد القوة في سبيل الله تعالى حقاً. أيُّها الإخوة الكرام: أمّا عندما تُقرأ الكون بعيداً عن الإيمان، قراءةً غير مُقيدةٍ بشرع الخالق، فإنَّ ذلك سيُنتج حتماً ما نراه اليوم، من سيطرة الطُغاة على الأرض ومواردها، والتحكّم بالمُستضعفين ومنعهم من حقوقهم، وتكون الحرب على المسلمين وعلى دينهم، وعلى مناهجهم، وتُستخدم الأسلحة الأشدُّ فتكاً، وإبادةً، وإجراماً، كي يدين الناس بالعبودية لغير خالقهم من طواغيت الأرض.

القراءة التي يريدها الله هي القراءة التي توصلك إلى نِعَمِ الله وإلى المُنعم:

أيُّها الإخوة الكرام: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) يعود بالإنسان إلى أصل خلّقه، عندما علّقت هذه القطعة اللحمية في جدار الرحم، لتأخذ غذائها، وهُنا بدأت رحلة الخلق، ابداً من حيث كنت كي لا تطغى في الأرض، ابداً من حيث أنت نُطفة، فلا تتكبر على عباد الله.

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) اقْرَأ لتشكر الكريم على نعمه، اقْرَأ لتُنشِئ النعمة إلى المُنعم، اقْرَأ من أجل أن تقول يا ربّي لك الحمد على ما أنعمت، اقْرَأ لتتواضع لله تعالى، هذه هي القراءة الكونية التي يريدها المولى جلّ جلاله (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

لا يمكن أن تصل لكل شيء بعقلك بل بما يخبرك به الله تعالى:

لا تنسى أبداً وأنت تقرأ، أنك لن تستطيع أن تصل إلى كل شيء، من خلال تفكيرك وعقلك، وتجربتك وحسبك، تأكد أنّ هناك أشياء يجب أن يُخبرك بها الله تعالى، وأن تُصدّقها (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) إياك أن تُطلق لذهنك ولفكرك القنان، لكي يستنتج بنفسه كل شيء، لا يمكن أبداً أن تصل إلى كل شيء بعقلك، كما يُريد الغرب اليوم وبعض المُثابرين به أن يوهمنّا، هذه القضية لم تدخل في عقلي، كيف أدخلها في عقلك؟! هذه القضية لم أفهمها، قال لي عقلي، عقلك يقول لك أم ربك يقول لك؟؟ القرآن يقول لك أم فكرك يقول لك؟

أيُّها الإخوة الكرام: آية (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) إشارة إلى أنّ هذه القراءة يجب أن يكون فيها شيء يُخبرك به الله تعالى، أنت تنظر في الكون فترى الشجرة، فتقول: الشجرة تدل على الخالق، فتقول: هناك خالق للشجرة، من هذا الخالق العظيم الذي خلق الكون بكل ما فيه؟! وأنت تقرأ في الكون، ما صفاته؟ ماذا يريد منّي؟ ماذا بعد الدنيا؟ كيف أصل إلى الله؟ كيف أحبه؟ كيف يُحبني؟ (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) هذه تُغلق فيها عقلك، وتتعلم فيها من ربك مباشرة، عندها لا يُقال في وسائل الإعلام ما رأيك بحدّ السرقة؟ يقول: والله أنا عندي أجده همجياً!!

ما رأيكم بتعدّد الزوجات؟ يقول: فيه ظلمٌ للمرأة، ومن أنت؟! من الذي أعطاك الحق أن تُقرّر في مسألةٍ أقرّها الشرع؟! من أنت حتى تقول إنّ هذه المسألة كذا أو كذا، وهي من القطعي في دين الله تعالى، هُنا المشكلة أيُّها الكرام، لذلك قال: (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) عندما يُعلمك الله، أصغ بسميعة لما يُعلمك الله إياه، وتقبّله بقولك: سمعنا وأطعنا فقط (عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فإن لم يُقرأ الكون هذه القراءات إيماناً، وشكراً، وإصغاءً، وتلقياً للخبر الصادق، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَاثِبٌ (6) أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْثَى (7)

(سورة العلق)

عندما يظنُّ نفسه مُستغنياً عن الله يطغى في الأرض، فيكون الفساد في الأرض.

قَدَّمَ اللهُ تعالى العلم على خلق الإنسان لِيُشير إلى أهميته:

أَيُّهَا الإخوة الكرام: يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)

(سورة الرحمن)

هل علّمه قبل أن يخلقه؟ أم خلقه ثم علّمه؟ الترتيب: خَلَقَ الإنسان عَلَّمَ القرآن، لكن الله تعالى قال: (الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)) هذا ترتيبٌ رُتبي، وليس ترتيباً زمنياً، فلو أنه خلقه دون أن يُعلّمه القرآن، لكان بلا منهجٍ فافسد في الأرض.

لذلك قال تعالى: (عَلَّمَ الْقُرْآنَ) أولاً، لِيُشير إلى أهمية أن يتعلّم الإنسان، وقَدّمها على خلق الإنسان (الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ).

أَيُّهَا الإخوة الكرام: اليوم وسائل التواصل، وإن كانت أصبحت وسائل التقاطع الاجتماعي، هذه الوسائل خَرَفَت جيلنا وخَرَفَتنا عن أهمية القراءة، وعن أهمية الكتاب، خَرَفَتنا حتى عن القراءة في أهم كتاب سُنَّسأل عنه يوم القيامة، وهو كتاب الله تعالى، وشغلنا عن أعظم شَيْءٍ في الأرض، وهي سُنَّة نَبِيِّنا صلى الله عليه وسلم، فإذا سألت سؤالاً اليوم، مَنْ يقرأ في اليوم خمس صفحات في كتاب الله من المسلمين؟ لا تجد إلا نسبة قليلة!! ولو سألت من يقرأ خمس أحاديث يومياً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فالنسبة أقل، لأنَّ الناس جميعاً اتجهوا إلى هذه الوسائل وأمسكوا هواتفهم، والطامة الكبرى في الأجيال القادمة، التي تعودت أن تُحرَّك الجوال وتُتابع المقاطع القصيرة، التي لا تؤدّي إلى ثقافة هذا إن كانت نافعة، فكيف إذا كانت مُضيرة أو كان فيها مُحَرَّم.

لذلك كنت أقول باللغة الإنكليزية: كلما اقتريت من Face book " " اتبعت عن book " لا يجتمع "Face book" مع "book Al" إلا أن يُضَيَّط بوقتٍ قصير، وأن يُترك المكان الأكثر، والأكبر والأوسع للكتاب، لكتاب الله تعالى أولاً، لِسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم ثانياً، لقراءة في كتابٍ نافِع في علوم الدين والدنيا ثالثاً.

سهولة الوصول إلى المعلومة زهّد الناس بها:

أَيُّهَا الإخوة الكرام: لا يُدَّ أن تُسَجِّع أبناءنا على القراءة النافعة الثميرة، وأن نحاول جَهْدنا أن نُبعدهم عن الجوال الذي في أيديهم.

أَيُّهَا الإخوة الكرام: إنَّ سهولة الوصول على المعلومة زهّد الناس بها، وجعلهم يُعرضون عن القراءة النافعة، سهولة الوصول إلى المعلومة، يعني اليوم يخطر في باله سؤال، يفتح الجوال يسأل فيأتيه الجواب، قد يكون الجواب صحيحاً أو قد يكون غلطاً، لكن هو قادرٌ على الوصول إلى المعلومة، فلما أصبح قادراً على الوصول إليها في كل وقت، زهّد فيها فلا يحفظها، ولا يفهمها، ولا يُثقّقها، لأنها في جيبه، أمّا عندما كان الوصول إلى المعلومة صعباً، يحتاج إلى فتح عشرات الكتب لتصل إلى المعلومة الصحيحة، كان ذلك يجعل الناس يهتمون بالمعلومة أكثر، ويُقبلون عليها، ويتمسكون بها أكثر وأكثر.

طلب العلم يحتاج إلى جهاد:

ذَكَر الإمام الذهبي في كتابه سِير أعلام النبلاء، كان يُترجم للإمام "بَقِيَّ بن مخلدٍ الأندلسي" أحد أئمة الحديث من الأندلس، يقول بقِيَّ: وقد جاء إلى بغداد يريد أن يلتقي بالإمام أحمد بن حنبل، قال: >

رحلةً طويلةً في طلب الحديث، فوصله الخبر، قال: فاعتممتُ لذلك عَمّاً شديداً، ماذا أفعل؟ كيف أتعلّم وقد قطعت كل هذه المسافات من أجل لقيا الإمام أحمد؟ فوصل ثم خرج يستدل على منزل الإمام أحمد، فذُلت عليه، دله أحدهم على الدار، فقرعت بابه، فخرج إليّ، فقلت: يا أبا عبد الله، رجلٌ غريب الدار، هذا أول دخولي هذا البلد، وأنا طالب حديث ومُفَقِّد سُنَّة، سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تكن رحلتني إلا إليك، فقال لي: ادخل إلى مدخل البيت، ولا تقع عليك عين، ثم سألتني: أين موضعك؟ فقلت: المغرب الأقصى، قال: إفریقیة؟ قلت: أبعد من ذلك، قال: الأندلس؟ قلت: نعم، من الأندلس جئت إلى بغداد.

فقال: إن موضعك لبعيد، وما كان شيء أحبَّ إليّ من أن أحسين عون مثلك على طلبه، ولكنني مُمتحن بما ترى، وقد مُنِع الاجتماع معي، فقلت: قد بلغني ذلك يا إمام، ولكن هذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، الناس لا يعرفونني، فإن إذنت لي أن أتّي إليك كل يوم في زي السوّال، "جمع سائل" يعني يُعرفنا "المُتَسَوِّل"، أتيتك وقد لبست لباس السائلين، لباساً مهترئاً، وكأنني جئت مالا، أو طعاماً، أو شيئاً، فإن شئت أن أتيتك كل يوم في زي السوّال، فلو لم تُحدثن في كل يوم إلا بحديث واحد لكان فيه الكفاية.

فكنت أخذ عوداً كما يفعل السائل الفقير، أخذ عوداً في يدي وألّفت رأسي بخرقه، وأجعل ورقي ودواني، أي "المحبرة" في كُمّي، ثم أتيت بابه فأصيح: الأجر رحمكم الله، فيخرج إليّ ويُحدّثني بالحديثين والثلاثة فأكتفي بذلك، على الباب وكأنه يُعطيه مالا أو شيئاً يُسمعه حديثين أو ثلاثة، فَيُسَجِّل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يذهب، قال: فالترمت ذلك فترةً طويلةً من الزمن، كل يوم، فلما طهر الإمام أحمد وسما ذكره، وعظم في عيون الناس، كان يعرف لي حقّ صبري، فكنت إذا أتيت حلقته فسبح لي، وأدنانني منه، ويقول لأصحاب الحديث: هذا يقع عليه اسم طالب العلم، ثم يقصُّ عليهم قصتي.<

الجهل الذي يعيشه الناس أنه لا يثقون بالحديث كما يثقون بالقرآن:

عندي ملاحظتان أخيرتان:

الأولى: أنه يأتي إليك اليوم شخصٌ بعد ألف سنة ليقول لك: كيف نثق بالحديث؟ القرآن محفوظ لكن الحديث لم يُحفظ، ولعلّه لم يقرأ عن الرحلة في طلب الحديث، ولم يقرأ عن شروط المُحدِّثين، ولم يقرأ عن شروط الحديث الصحيح، ولا كيف ينتقل الحديث من الصحة إلى الجس، ولا كيف يُصَيِّغ ضعيفاً، ولا كيف يُحكم عليه بالوضع، ولا يعرف علم الجرح والتعديل، ولا يعلم علم ضبط الرجال، ولا يعلم العدالة والضبط والفرق بينهما، لم يقرأ في ذلك شيئاً، لكنه يستمع في وسائل الإعلام، إلا أننا لا نثق اليوم بالأحاديث لعلها خُرُفت، وضعت، نكتفي بالقرآن الكريم، هذه أول ملاحظة للجهل الذي يعيشه بعض الناس.

والمسألة الثانية: انظروا كيف كان الوصول إلى المعلومة صعباً، لكن كيف كانت المعلومة تُثَمَّر لأنها تأتي بعد بحثٍ وبعد جهاد، فبينما اليوم أن تعود إلى القراءة، إلى الكتاب، إلى التعلم، والواجب العظيم الذي لا يمكن أن نُغفله، أن نقرأ يوماً في كتاب الله تعالى، وفي سُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي سيرة المُصطفى عليه الصلاة والسلام.

أَيُّهَا الإخوة الكرام: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أفعالكم قبل أن تُوزن عليكم، واعلموا أنَّ مَلَكَ الموت قد تخطّأنا إلى غيرنا وسيخطئ غيرنا إلينا فلنخذ حذرنا، الكَيْس من دان نفسه وعمل لِمَا بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمتّى على الله الأماني، واستغفروا الله.

الحمد لله ربّ العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وليّ الصالحين، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد.

الدعاء:

اللهم اهْدِنَا فيمن هديت، وعافِنَا فيمن عافيت، وتَوَكَّلْنَا فيمن تولَّيت، وبارِكْ لنا فيما أعطيت، وقِنَا واصرف عَنَّا شرّاً ما قضيت، فإنك تقضي بالحق ولا يُقضَى عليك، إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، فلك الحمد على ما قضيت، ولك الشكر على ما أعمت وأوليت، تستغفرك وتوب إليك، وتؤمن بك وتوكل عليك.

اللهم هبّ لنا عملاً صالحاً يُقرَّبنا إليك.

اللهم يا واصل المُنقطعين صلنا برحمتك إليك.

اللهم بفضلِكَ عُقْمنا، واكفنا اللهم شرَّ من أَهَمَّنَا وأَعَمَّنَا، وعلى الإيمان الكامل والكتاب والسُّنة توقُّنا، نلقاك وأنت راضٍ عَنَّا.

اللهم كُنْ لأهلنا في غُرَّة عونا ومُعِيناً، وناصرًا وحافظاً ومؤيداً وأميناً.

اللهم أطعم جائعهم، واكسُ عريانهم، وارحم مُصابهم، وآو غريبهم، واجعل لنا في ذلك سهماً وعملاً صالحاً يا أرحم الراحمين، واغفر لنا تقصيرنا فإنك أعلم بحالنا، وانصُرنا اللهم على أنفسنا وعلى شهواتنا حتى ننتصر لك فنستحق أن تنصُرنا على أعدائنا.

اللهم اجعل هذه البلاد أماناً سخاءً رخاءً وسائر بلاد المسلمين، ووفِّق القائمين عليها لما فيه مرضاتك، وللعمل بكتابك وبسُنَّة نبيك صلى الله عليه وسلم، والحمد لله ربَّ العالمين.

نور الدين الاسلامي